يصفها البعض بجهنم الحمراء حيث تتعذب فيها الاجساد.. مكان تنزف فيه أقدام الاطفال وهم يجرون وراء أمهاتهم ليفلحوا بالتعلق بأسمالهن البالية، وهن يحملن على اكتافهن الطين والطابوق، ليوفرن ما يقيهن شرور الرذيلة .. أماكن يسمونها بمعامل الطابوق في العراق، ما زالت تسحن نفوس العاملين فيها من أجراء العمل المؤقت، نساء ورجال واطفال وحمير وعربات تحمل الطين المفخور، لترصفه على مساحة شاسعة من الارض قبل ان يبيعه صاحب المعمل ويتهنّى بثمنه، أسر بكاملها تعم اجسادها فوضى المناخ، ويتسلط عليها ظلم الطبيعة بكل جبروتها لتظهر وجوههم بلا جلود .. إنهم لا يوحون للناظر أن لهم جلوداً حية تسير فيها الدماء، بل هي طبقات من لا شيء سوى صفحات مغبرة يعمها الجفاف، واطفال حفاة تتوزع على اجسادهم قطع مما يسمونها ملابس ..

تدخل إلى عالم من الدخان والأوبئة

واقع النساء العاملات في معامل الطابوق

بغداد / المدى

عدسة: أدهم يوسف

خرق تعبث بها الريح كيفما تشاء، وتظهر انصاف اطرافهم وهم يجرون بلا انتظام أينما سنحت لهم الفرصة للحاق بذويهم حيث لا يهتم بهم أحد .. أكوام من طين تهوي عليها أسر بكاملها وبكل ما أوتيت من قوة هدها الجوع، لتنتج ما يرضي رب العمل وزبانيته ممن يسمونهم (بالمراقبين) .. الدواب التي يستخدمونها لجر العربات المحملة بالاحجار تذهب وتجيء مؤدية ما عليها دون توجيه من أحد .. فهي تعرف الى أين عليها أن تمشي ومتى عليها أن تتوقف .. في نفس المنطقه تقع هياكل يقال عنها أنها مساكن للعاملين، زرائب مهلهلة لا تقي من حر ولا من برد، يسعى أربابها إلى تصليح الشقوق الحاصلة فيها بعد ساعات العمل المضني لكي يتمكنوا من النوم فيها ولو لساعات قليلة.

معامل الطابوق التي جاء ذكرها في التاريخ القديم للعراق اتصفت بقدم البناء العراقي الذي ما ان تتذكره حتى تتوارد الى ذهنك افكار وصور هندسية، فضلا عن تصورك لهذه الصروح من اين تكونت وما هي المواد التي استخدمت في تشيدها؟ على الرغم من بساطة الادوات والمواد المتوفرة انذاك ومع تقدم الزمن ومرور اجيال عدة عبر نفق التاريخ لنصل الى عهدنا الحاضر لنجد بدائية الماضي تعصف بواقعنا الحالي ، فما ان تهبط من جسر ديالى الجديد وبعد انقضاء كيلومترين حتى يتراءى لك من بعيد اعمدة من غبار الماضي متصلة بحداثة الحاضر بحيث تنسى الارض التي تسير عليها وتستعجل وصول السيارة لانك ستتوهم انك امام عاصمة الضباب ولكنك ما ان تقطع ٢كم او ثلاثة حتى تبدأ بالشعور بضيق واختناق حيث تجد نفسك امام جو ملوث بالغبار والدخان لتختلط الامور عليك، لاسيما انه يلوح خلف الغمامة بعض هياكل الاشجار ولكن ما ان تقترب حتى تتوضح لك الصورة الا وهي (كوة) تنفث الدخان والتراب لتشكل تلك الغمامة وعند وصولك حيث تبدأ لك الصورة المأساوية الى درجة يشطح بك الخيال كأن هذه المقاطعة من الارض قد نقلها طائر الرخ من اعماق التاريخ وحط بها في هذه المنطقة التي تعيش القرن الحادي والعشرين، فتتشكل امامك صورتان، صورة عبق التاريخ وصورة الحضارة.

بيوت طينية يسكنها أطفال ونساء

تجد في مواقع العمل العجب محالا وبيوتا من الطين يسكنها نساء واطفال فعندما سالنا احد النساء العاملات اجابت نحن تهجرنا من محافظة واسط تاركين خلفنا بيتنا وجميع مصالحنا ووصلنا الى هذه المنطقة واشتغلنا في هذه المهنة وبالرغم من عودة استقرار الاوضاع الامنية لكن نحن تعودنا على هذه المنطقة وما نحن عليه الآن ولهذا اضطررنا الى المكوث والعمل في المعمل بعد الاتفاق مع صاحب العمل السيد (علي شمخي) حيث قمنا ببناء دار من الطين لنكون قريبين من موقع العمل لنعمل جميعا انا وزوجي واولادي ولو انتقلت الى مواقع العمل الفعلية فسترى حيوانات يقودها ويشرف عليها اطفال من الجنسين يذهبون ويعودون معها فتكون بداية الانتقالة من موقع (الكاصوصة) الى موقع نشر الطابوق ، وجهنا سؤالنا الى احد الاطفال لماذا تختص بهذه المهنة دون غيرها بالذات فأجابنا الطفل (محمد) ان هذا العمل لايقدر عليه سوى الاطفال لبساطته، فضلا على انه يتطلب السير مشياً لمسافات طويلة تستغرق وقتا طويلا، مستصحبين معنا الحيوانات لنقل المواد على ضهورها واكثر الحيوانات استعمالا في هذه المهنة هي الحمير، فضلا عن الاجور القليلة التي نرضى بها وانا لا اعمل وحدي وانما اعمل مع باقي افراد عائلتي ابي وامي واخوتي الاربعة حتى نستطيع تحمل تكاليف المعيشة الصعبة، ولا سيما اننا عائلة كبيرة ولا تستغرب ان اعمار اخوتي لاتتجاوز الثلاثة عشر عاما وانا اصغرهم حيث ابلغ من العمر ثماني سنوات ً وما ان اكملنا الحديث مع (محمد) حتى لاحضنا احد العمال والذي يسمى بـ(عامل الكاصوصة) والغريب الذي يلفت النظر الى طريقة تعامله مع (الحمار) الذي يستخدمه بالعمل حيث يقوم بضربه ضربة خفيفة واحدة حتى يستدير بشكل نظامي ويسير خلف صاحبه وبنفس الطريق، وما ان يصل الى المكان المطلوب حتى يقف لوحده ويترك مسافة خمسة سنتمترات بينه وبين صاحبه، مما يثير العجب.

وبعد ان تجاوزنا المعبر الرئيس صرنا في احد المداخل، طالبين بذلك صاحب المعمل واستعجلنا الامر ودخلنا الى موقع الادارة في المعمل لنجد ان صاحب العمل قد بنى مكتبه بشكل يتناسب مع الواقع فالبناء مقسوم الى قسمين وبشكل مستطيل تسير مسافة في الجزء الاول من البناء حتى تدخل المبنى الثاني المتصل به والمزود بجهاز تكييف وخال من اي فتحة وشباك بحيث وجهنا سؤلنا الى السيد (عماد الدين علي) صاحب معمل النهرين للطابوق فاجاب بشكل علمي حيث قال : ان الجزء الاول من البناء يكون فارغا ولاتوجد فيه اي فتحة لكي يكون واجهة امتصاص غضب التراب الممزوج مع الدخان من خلال تخلله تلك المسافة الطويلة ، ويضيف (علي) ان هذا المكان يحفه باب مغلق باحكام لكي لايدخل الا القليل من التراب الى الجزء الثاني وهذا القليل يتولى امره جهاز التكييف الموجود في الغرفة.

شرعية إقامة المعامل

إن لإقامة هذه المشاريع جوانب عدة منها الشرعية في انشائها هذا ماقاله (محمد سليم التميمي) مدير جهاز التفتيش في دائرة المعمل والتدريب المهني التابع لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية متابعا قوله ً ان عدد المعامل يبلغ ١٤ معملا منها ثلاثة معامل مجازة رسميا اما بقية المعامل فهي غير اصولية كونها مشيدة داخل حدود المدن وغير مرعية للظروف البيئية المناسبة ، مضيفا ان لفرق التفتيش التي نشرف عليها قد تم توجيهها الى تلك المواقع للوقوف على حقيقة وواقع حال عملها وبعد الاستنتاج والتقدير والتاكد تم اغلاق خمسة معامل منها بالطرق القانونية والاصولية والعمل جار على اغلاق المعامل المتبقية حيث ان اطراف محافظة بغداد تحتوي على ثلاثة معامل اصولية واحدعشر معملا غير اصولي. واشار (سليم) الى الواقع الاجتماعي للعاملين في هذه المعامل حيث قال :ان اغلب العاملين في هذة المعامل من العنصر النسائي حيث يبلغ عددهن في كل معمل حوالي ١٥ عاملة،واغلبهن من العوائل المهجرة من المحافظات الجنوبية وبرواتب متدنية وبظروف صحية غير مناسبة.

أغلب العاملات صغيرات السن

وتابع (سليم) قوله : ان اغلب الفتيات العاملات صغيرات السن واغلبهن بعمر المراهقة ومن المتعارف عليه ان الرجل يستغل المرأة (زوجة واخت وابنة) بشكل غير انساني حيث يقع العبء والجهد الاكبر على عاتقهن دون الذكور ، موضحا ان اغلب اماكن سكنهم إما من الخيم او من مخلفات وبقايا الطابوق المتوفرة حول المعامل نفسها ، مبينا ان اغلب العاملات الموجودات داخل المعامل يتقاضين اجوراً زهيدة جدا قياسا بالجهد المبذول في العمل،فضلا عن الوقت المستغرق فتبلغ اجرة تصنيع كل (١٠٠٠) طابوقة (٢٥٠٠٠) الفي دينار، اي ان المبلغ المدفوع لصناعة طابوقة واحدة (٢٥) دينار ولكن تتقاضى العاملة (٢٠٠٠٠) الف دينار يوميا، على الرغم من قيامها بنفس المهام التي يقوم بها الرجل الذي يمنح اجرة يومية (٢٠٠٠٠) الف دينار ، ولفت النظر الى مأساة النساء في المعامل منها حالة ام عاملة لديها طفل بعمر ٤ اشهر جلبته معها الى محل عملها لعدم وجود مكان او عائلة لاحتضانه طيلة بقائها في العمل، مما يعرضه الى حر الصيف وبرد الشتاء فضلا عن حجم التلوث البيئي.

الواقع الصحي والبيئي المتردي

وأضاف مسؤول التفتيش ان لسوء الخدمات والوضع المزري الذي يعانيه اغلب عمال كور تصنيع الطابوق، ناهيك عن رداءة الواقع البيئي حيث يتمثل الواقع الصحي لهذه المعامل بوجود مجاميع من البرك والمستنقعات التي يعتمدون عليها في استخراج الطين المستخدم في صناعة الطابوق، فضلا عن الاعتماد على البرك نفسها في شرب المياه التي هي بؤرة لمرض الملاريا وكذلك توجد برك ماء يطفو عليها خليط من النفط الاسود المستخدم في حرق الطابوق، يسبب تصاعد الابخرة السامة كلها تؤدي الى امراض واوبئة للعاملين هناك، كما تؤدي الى اصابة الاطفال العاملين بأمراض الجهاز التنفسي واردف قائلاً: عملنا في الوقت الحاضر على تسليط الضوء على هذه الحالات وخصوصا واقع النساء والاطفال المتورطين في العمل داخل معامل الطابوق، فضلا عن واقعهم المزري بشكل عام الذي اثر عليهم تاثيرا ملحوظا لذا حاولنا مفاتحة جهات عدة معنية في الامر منها وزارة الصحة لتشكيل فرق تتابع تقديم الخدمات الصحية لهم وتكون جوالة لكي تقوم على الاقل باعطائهم اللقاحات المطلوبة، اما الرعاية الاجتماعية فتم حثهم على تفعيل وتنشيط دور شبكة الحماية الاجتماعية حيث تبين ان اغلب العاطلين عن العمل في هذه المناطق لم يحصلوا على القروض الخاصة بهم التي باشرت بصرفها وزارة العمل والشؤون الاجتماعية منذ عام ٢٠٠٧ الماضي، فضلا عن التلكؤ في صرف رواتب شبكة الحماية الاجتماعية.

قانون العمل رقم ٧١ لسنة ١٩٧١ له حلول

ويبين (حسني احمد) الخبير القانوني في دائرة العمل والتدريب المهني قائلا: ان ماجاء في قانون العمل رقم ٧١ لسنة ١٩٧١ من مواد قانونية ضمنت حقوق العمال والعاملات، حيث نصت المادة (٨٧) من القانون ذاته على (السماح للعاملة المرضع بفترة ارضاع اثناء يوم العمل لاتزيد على ساعة واحدة ويعتبر وقت الارضاع من وقت العمل، فضلا عن اعفاء المرأة التي لها طفل او اكثر دون السادسة من العمر اذا احتاج طفلها المريض الى رعايتها مدة لاتزيد على ثلاثة ايام من كل حالة تقتضي ذلك، ويترتب على هذه الاعفاء عن قطع استحقاقها الاجر طيلة مدة انقطاعها عن العمل) واضاف (احمد) من خلال دراستنا للمواد القانونية الناصة والموجبة على حماية العمال بشكل عام وما توصلنا اليه وبصراحة اود ان اقول ان هناك تقصيرا واضحا من الجهات المعنية في حلحلة هذه المشكلة لذا تم وضع بعض المقترحات المستندة الى المواد القانونية التي بدورها قد تساعد على حل شيء من المشكلات الموجودة، وبما ان التلوث يصب داخل معامل الطابوق وفي المنطقة المحيطة فأن المسؤولية تعتبر مسؤولية جهاز التفتيش والسلامة المهنية الى البيئة البشرية (حيث ان مسؤولية البيئة البشرية خارج منطقة العمل) وعليه فلا بد من تشكيل لجنة مشتركة وفق القانون لزيارة هذه الاماكن وبصراحة قبل ان يشاهدها احد الصحفيين ويعتبرها سبقا صحفياً، مما سنضطر الى الوقوف مكتوفي الايدي وكاننا نتفاجأ ، وتابع قوله من الضروري جدا اعادة النظر في امر بنايات معامل الطابوق حيث ان اغلب المعامل سيئة التوزيع وخصوصا بعد التوسع العمراني بين المدن واطرافها لذا يجب فحص مكانها ومدى ملائمة العمل فيها، فضلا عن عدم مباشرة اي معمل جديد الا بعد فحصه والتاكد من كونه مستوفيا للشروط اللازمة ومن المشاكل التي يجب ان تحل إعادة تعبيد جميع الطرق التي تتنقل عليها السيارات، فضلا عن منع الاهالي من السكن بين المعامل.

واشار حسني الى ظاهرة عمالة الاطفال وخاصة من الذين يعملون داخل معامل الطابوق حيث منع القانون اشتغال الاطفال تحت سن ١٥ عاما تحت اي ظرف كان لانه يعتبر خرقا لقانون عمالة الاطفال رقم ٢٣ لسنة ١٩٨٧ وما جاء عليه من تعديلات والتي انبثق عنها هيئة خاصة سميت بهيئة رعاية الطفولة ومقرها في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية والزمت المعاهدات والقوانين الدولية والعراق من بين الدول الموقعة عليها في الامم المتحدة الالتزام برعاية الطفولة وحماية الاطفال في العراق تحت اي ظرف من الاستغلال بانواعه او الاشتغال باعمال خارجة عن طاقاتهم ولا تناسب وضعهم الجسدي، فضلا عن العمر والخبرة في ممارسة الاعمال التي تفوق طاقاتهم.

شروط الصحة والسلامة المهنية

ان لشروط الصحة والسلامة المهنية الاهمية الواضحة في مثل هكذا اعمال واماكن فتعتبر معامل الطابوق من اكثر البيئات تلوثا هذا ماقاله السيد هاني احمد مدير الصحة والسلامة المهنية معتبرا ان معامل الطابوق اغلبها تخترق القوانين الملزمة بتنظيم عملها حيث بين قائلا : ان لوجود البدائية في عملها فتح الطريق امام آفة التلوث من التعشيش داخلها وان لاستخدام الحيوانات كالحمير والتي يعمل عليها الاطفال في عملية نقل الطابوق من (الكاصوصة) الى موقع الانشاء ويعد مرحلة واضحة لتنشأة بذرة التلوث خصوصا بعد ملامسة الاطفال في مواقع العمل الحيوانات بشكل مباشر دون اعارة الاهمية الى امكانية اصابتهم بالأمراض، ناهيك عن عدم وجود مستوصف صحي ممكن يلجأ إليه العاملون في اي حال من الاحوال لكي يتم اجراء الفحص الطبي للعاملين بصورة مستمرة ودورية. وبين هاني لقد تقدمنا بجملة مقترحات الى الجهات المختصة لمراعاة احوال الوضع البيئي المتردي لتلك المناطق حيث تم وضع مقترح باعادة زرع الاشجار على جانبي الطريق والمناطق القريبة من المعامل لكي تخفف من حدة التلوث الناتج عن تصاعد الاتربة والدخان من المعامل،فضلا عن تزويد المنطقة بالماء الصالح للشرب فقد اتضح بانه لايوجد ماء صالح للشرب في تلك المناطق بتاتا، كذلك القيام بالقضاء عل ظاهرة الكلاب السائبة لما قد تسببه من امراض والتاكيد على حقوق العمال كما جاء في قانون العمل النافذ حيث يجب ان يتمتع العامل بغرفة استراحة وملابس عمل، فضلا عن التمتع باجازات العمل في الموسم الذي لايعملون فيه كذلك التاكيد على تطبيق شروط الصحة والسلامة المهنية والتي من شانها توفير اماكن تهوية جيدة للعمال واضاءة جيدة في الاماكن التي ممكن ان يمكثون فيها ، مؤكدا على استعمال المكننة في مثل هكذا مشاريع وعدم الاعتماد على المشاريع التقليدية، فضلا عن اتاحة الفرصة للعاملين والتاكيد على شربهم الحليب صباحا،كما هو معمول به في المشاريع النفطية لان الحليب بعناصره يساعد على مقاومة الجسم عند استنشاق الابخرة الناتجة عن النفط الاسود ومقاومة الغثيان والتحمل لفترة طويلة في حالة الاصابة بالاختناق من جراء استنشاق الابخرة او الدخان المتصاعد .

اغلب الفتيات العاملات صغيرات السن واغلبهن بعمر المراهقة